

## الموم آومآ

2017-09-20 على آسفن عفف

لم تمنعه سنوآه السون، ولا حرارة الشمس الملهبة من مواصلة عمله الشاق الذي لا فتناسب مع آسده النحيف المآب، رأفاه آه لففب الشمس أكثر من مرة، وكنآ أآوقف قرفبا منه وألقف علىه الآفة، وأدقق النظر فف وآهه بعمق، فأرى آلك الآعافد الآف آرسم آضارفس عآفة آرفبة فف مآلعه، فأسآغرب بفنف وبفن نفسف، لماذا فعمل هذا الرجل بمفرده فف الآو المآرق، ففما فآآفف الشباب آه آلال المآهف أو العرف المكففة أو فأآدهم النوم فف رحلة طوفلة.

أسئلة كآفة كانت آور فف ذهنف، لم أكن قادرآ على آوففه السؤال بصورة مفاشرة للرجل العامل كبفر السن، كنآ أشعر أنف فآوففه أف سؤال له سوف أسبب له آرجآ أو ألمآ ما، لذلك كنآ أآكفف بالنظر الى وآهه والآدقق بالعرف المآفصآ على آفبفه والمار عبر الأخافد النازلة على آفده بصورة مآعرجة نحو رقبآه وصدره، فكان ماء آسمه واضآ وهو فآكآس على بآلآه الزرقاء المبللة بعرق آسمه.

الى آانبف فف صدر السفارة كان فآلس ولآف الشاف، وكان فشعر بألمف وأنا أآلعه الى هذا الشفآ الكبفر وهو فكد وفآعب وفعمل بلا كلل أو ملل، فف الفوم الآنف آكرر المشهد نفسه، وهذه المرة أآلآ فف سلامف على الرجل وسألآه إن كان بآاجة الى ماء أو أف شفة آخر، لكنه كان فواصل عمله بآمع النفافآ بصفآ آرفب، آم عرفآ منه أن آآد رجال الآف وعده بالآعفن والآصول على رآب شهرف، وعندما آابعت قضية الآعفن عرفآ أنها آدعة، لأن الآعفنآ فف آوائر البلدية مآوقفة آمامآ بسبب آالة الآشف الآف آطبآها الآولة آه ضآط أسعار النفط وهبوط المفزافة وسوى ذلك من آآآ وأعدار.

واصل الرجل كبفر السن عمله الذي فبأآ من الساعة السابعة صباآ، وفنآهف فف الآلآة بعآ الظهر آفآ آبلآ حرارة الشمس ذروآها، وعندما آحرآف عن الأمر، عرفآ أن هذا الرجل صاآب عائلة من آلاآة أفراد، هو وزوآآه وهف بمآل عمره آقرفبآ. امرأة عآوز فاقآة للبصر، أما الآلآ فهو ابنهم

المصاب بكساح الطفولة، فهو غير قادر على المشي مطلقاً بسبب إلتواء عظام ساقه، مما عطل جسده عن الحركة، فسكن في فراش متهرئ قديم وأمه العجوز تناوله لقيمات من الخبز المنقوع بالماء، وأحياناً تناوله (استكان شاي) لو توفر لهم السكر، وفوق هذا وذاك، ليس لديهم بطاقة تموينية بسبب فقدانهم لهويات الأحوال المدنية (الجنسية) وعدم قدرتهم على استخراج بدائل لأسباب إدارية، هكذا تجتمع كل الأسباب ضد هذه العائلة، صحيح أن هناك من ساعدهم في بناء غرفة بأحد الأحياء العشوائية، وأن هناك من يمدهم ببعض الخبز والرز وما زاد من موائد هي فقيرة أصلاً، فماذا تتوقع من موائد الناس الذين يعيشون في أحياء عشوائية؟.

في إحدى الليالي لم ينم الشيخ المسن، سمع شخير ابنه فعرف أنه سكن الى النوم لأنه عادة ما يصاحب تنفسه الشخير عندما يغفو، وعرف أن زوجته العجوز قد سكنت بجسدها الضعيف الى جانب ابنها لأنها عندما تكون صاحبة لا تكف عن الكلام والهديان في أي موضوع حتى أنها في كثير من الأحيان عندما ينام زوجها تبقى تحدّث نفسها الى أن تغفو من التعب.

هو وحده بقي متطلعاً في صفحة السماء، حيث النجوم تتلألأ بصورة جميلة أمام عينيه، حلم يقظة يجتاح رأس الشيخ الكبير، إنه سوف يعمل، سوف يجد له وظيفة كما وعده أحد الرجال في الحي، وعندما يباشر بوظيفته سوف يحصل على راتب مجزٍ، ويمكنه أن يشتري طعاماً جيداً، وملابس نظيفة، ويذهب بولده الى أفضل الأطباء، سوف يعيد إليه ساقه، وسوف يقوم ابنه الشاب من نومته على الفراش وسوف يساعده في نهايات عمره، سوف يعمل ابناهما ويريحهما في أواخر العمر.

غفا الشيخ الكبير وهو ينظر الى نجوم السماء، في غفوته بدأ يحلم أيضاً، وجد نفسه أصغر بكثير من عمره الحالي، بدا شاباً قوياً معافى، يعمل ويكد بقوة في بساتين القرية، يجني الأعناب والكروم ويعود الى البيت محملاً بالذ الفواكه وبجيب مليء بالدنانير، جسد معافى وطعام لذيذ وجيوب تغص بالنقود، ماذا يريد أكثر من هذا، حتى أنه قرر الزواج من فتاة القرية الجميلة، وكان له ما يريد، وعاش حياة هانئة، ثم صحا من حلمه على صوت ابنه العليل وهو يطلب الماء، وكانت الشمس قد شقت بضياؤها صفحة السماء.

ارتدى الشيخ المسنّ بدلته الزرقاء وخرج الى العمل، لم يترك ورقة صغير او كبيرة ولا قنينة فارغة ولا أطعمة ملقاة على قارعة الطريق إلا وجمعها وألقى بها في الحاوية الكبيرة، هكذا يواصل العمل من بداية النهار حتى بعد الظهر، كانت شوارع الحي تبدو مرتبة نظيفة وقلما ترى أي كمية من القمامة ملقاة هنا أو هناك، وهذا دليل على أن الرجل كبير السن كان يؤدي عمله بأمانة تامة، أفضل من مئة شاب لا يحمل جدية وإخلاص هذا الرجل المسن، فكانت أبواب البيوت نظيفة وعتبات الأبواب بلا مخلفات أو أي نوع من الفضلات.

هذا اليوم قررت أن أفعل شيئاً للرجل، فقد حصلت على وعد من أحد معارفي على تعيينه بأجر يومي، أو على الأقل تسجيله في دار الرعاية، ويمكن أن نشترك في جمع أموال بسيطة لهذه العائلة، والحقيقة هناك مئات العائلات من هذا النوع، لكن ما يقع أمام أعيننا مصادفة نتنبه، أما أن نبحث عن المعوزين فهذا ما لا نقوم به، لأننا نحاول أن نقنع أنفسنا بأن الدولة والحكومة هي وحدها المسؤولة عن مثل هذه الحالات، لكن الأمر ليس هكذا، فالكل مسؤول عن إعالة حالات من هذا النوع، والأثرياء جميعاً مسؤولون أمام الله عن حالات كهذه، حتى لو كان الثري لا يعرف بها، عليه أن يبحث عنها، ولكن نحن للأسف حتى حالات العوز التي نرها بأم أعيننا نتغاضى عنها ونهملها ونجد ألف عذر وعذر لأنفسنا، وأول هذه الأعذار، الحكومة هي المسؤولة.

أخيراً لم أجد الشيخ المسن، لا اليوم ولا غداً ولا بعد غد، غاب الرجل الكبير عن الحي، لم يعد يعمل به، وبعد بحث وسؤال واستقصاء وأسئلة، عرفت أن الشيخ الكبير العامل تحت لهيب الشمس سَلِمَ أمانته الى الله، مات وغادر الى السماء التي كان ينظر إليها في الليل ويحلم بالحصول على عمل ونقود وطعام ودواء، لكنه لم يحصل على ذلك، إنه الآن بين يدي الرفيق الأعلى، يشكو من أهمله في الأرض واحداً واحداً.